

الأسس الفلسفية للمنهج المادي (الفلسفة الجدلية الديالكتيكية والتاريخية)، ونقد أبعاده
المعرفية والإنسانية وفق منظور فلسفي وإسلامي

Philosophical Foundations of the Materialist Approach (Dialectical and Historical Materialism) and a Critique of Its Epistemological and Human Dimensions from a Philosophical and Islamic Perspective

Foundations of the Philosophical Materialist Approach (Dialectical and Historical Philosophy), and the Critique of its Epistemological and Human Dimensions from a Philosophical and Islamic Perspective

[10.35781/1637-000-131-005](https://doi.org/10.35781/1637-000-131-005)

د. عبد الرحمن بن ناصر الرئيس*

*أستاذ الثقافة الإسلامية المساعد – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة الملك فيصل – المملكة العربية السعودية

الملخص

وملازماتها للحركة، والموقف من الوعي والحقيقة الموضوعية. وفي جانب النقد، بين البحث قصور المادية في تفسير الظاهرة الإنسانية، وتناقضاتها الفلسفية، واعتمادها على رؤى اختزالية تهدد القيم الإنسانية.

وقد خلص البحث إلى أن المنهج المادي ليس مجرد نظرية فلسفية، بل رؤية شاملة تتعارض جوهرياً مع الرؤية الإسلامية، وتستدعي المزيد من الدراسات النقدية المقارنة لتوضيح هذا التعارض وتحقيق الوعي الفكري لدى الباحثين والطلاب.

الكلمات المفتاحية: المادية، الجدلية، التاريخية، الماركسية، النقد

يهدف هذا البحث إلى دراسة المنهج المادي الجدلي والتاريخي من حيث جذوره الفلسفية، ومقولاته الأساسية، وأبعاده المعرفية والإنسانية، مع نقده من منظور فلسفي وإسلامي. اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي النقدي، حيث تناول مفهوم المادة في الفكر الماركسي، والفروق بين المادية الجدلية والمثالية الجدلية، وكيف تم تحويل الجدال الهيجلي إلى إطار مادي. كما عرض البحث المادية التاريخية باعتبارها تطبيقاً لمبادئ المادية الجدلية على تفسير الحياة الاجتماعية والتاريخ البشري.

تناول البحث أبرز أعلام هذا المنهج، مثل ماركس، وإنجلز، وفورباخ، وعرض أهم الأسس الفكرية مثل وحدة وصراع الأضداد، وأزلية المادة،

Philosophical Foundations of the Materialist Approach (Dialectical and Historical Materialism) and a Critique of Its Epistemological and Human Dimensions from a Philosophical and Islamic Perspective

Foundations of the Philosophical Materialist Approach (Dialectical and Historical Philosophy), and the Critique of its Epistemological and Human Dimensions from a Philosophical and Islamic Perspective

Dr. Abdulrahman bin Nasser Al-Rais*

*Assistant Professor of Islamic Culture – College of Sharia and Islamic Studies
King Faisal University – Kingdom of Saudi Arabia

Abstract:

This study aims to examine the materialist dialectical and historical approach in terms of its philosophical roots, core propositions, and epistemological and human dimensions, while providing a critique from both philosophical and Islamic perspectives. The research employs the descriptive, analytical, and critical method, addressing the concept of matter in Marxist thought, the differences between dialectical materialism and dialectical idealism, and how Hegelian dialectics was transformed into a material framework. It also explores historical materialism as the application of dialectical materialist principles to the interpretation of social life and human history.

The study discusses the major figures of this approach, such as Marx, Engels, and Feuerbach, and outlines its main philosophical principles, including the unity and struggle of opposites, the

eternity of matter, its inseparability from motion, and its stance on consciousness and objective truth. In the critical dimension, the research demonstrates the shortcomings of materialism in explaining the human phenomenon, its philosophical contradictions, and its reliance on reductionist views that threaten human values.

The study concludes that the materialist approach is not merely a philosophical theory but a comprehensive worldview that fundamentally conflicts with the Islamic perspective. This necessitates further comparative critical studies to highlight this contradiction and to promote intellectual awareness among researchers and students.

Keywords: Materialism, Dialectics, Historical Materialism, Marxism, Criticism

مقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، أما بعد:

كانت أوروبا في القرن التاسع عشر أشبه "بالسوق التاريخي"¹ للأفكار والفلسفات التي انبثقت من خلالها أبرز النظريات الحديثة الغربية، والتي تفاعلت فيه كل الأشياء، ذلك السوق الفكري الذي عُرِضت فيه وجربت كل النظريات الفلسفية الأوروبية ثم أنتجت تلك الحقبة امتداداً معرفياً لكل سلعة عُرِضت في هذا السوق.

وكانت من أبرز البضائع الفكرية التي لاقت رواجاً في الحياة الأوروبية وامتدت إلى ما بعد أصل النشأة، حتى اكتوى بنار ضلالها العالم الإسلامي إنها النظرية المادية المتمثلة بالمنهج المادي التاريخي في ثوبه الماركسي والذي اعتمد على الجدلية المادية منهجاً وأداة.

ذلك المنهج الذي قال عنه الباحث فيه، والسابر لأغواره²: "لقد كانت ثمرة قراءتي الدقيقة لجذور هذا المذهب، أنني لم أعد منه إلا بخفي حنين. دخلت في قراءته، وأنا أحمل معي جعبة العقل والمنطق، فارغة مهيأة، ليس فيها أي أخلاط من شأنها أن تعيقني عن القناعة والفهم، فعدت بها فارغة كما كانت اللهم إلا من أحكام جزئية يؤيدها المنطق، ولكن لا يترتب عليها أي شيء ذو بال، عدت لأجد يقيني بالله وصفاته، أتم رسوخاً، وأقوى ثباتاً، في تربة المنطق الموضوعي الصافي الذي يستعلي على كل عصبية أو تقليد.

بل إنني أقول: إن كثيراً من المعتنقين لهذا المذهب والداعين إليه، لم يقبلوا من قراءة أساسه الفلسفي هذا إلا على عناوين حفظوا بعض مضموناتها السطحية، وراحوا يقارعون بها أفكار الناس، ويهيمنون بها على نفوسهم"³

¹ استقيت هذا المصطلح من الباحث سعود بن سلمان بن محمد آل سعود في رسالته في الدكتوراه بعنوان (الفكر المادي المعاصر في البلاد العربية وموقف الفكر الإسلامي منه) راجع ص3.

² كان هذا الباحث الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في مقدمة كتابه (نقض أوهام المادية الجدلية) فقد كتب تجربته في مناقشة أصحاب هذا المنهج المادي ثم خرج بنتيجة هذا الكتاب المتضمن قراءة 300 صفحة الصادر عن دار الفكر دمشق - سوريا، الطبعة الثالثة 1405هـ.

³ نقض أوهام المادية الجدلية ص8.

إنه المنهج المادي الذي يرى أن هناك محتوى أو مادة واحدة في الكون ألا وهي المادة، حيث يرى الماديون أن الروح غير موجودة وأن الخوارق والظواهر الخارقة للطبيعة والظواهر الغامضة هي إما أوهام أو أمور تعزى للظواهر الطبيعية وخرجت من رحمها وأن الوجود ومظاهره وأحداثه يمكن تفسيرها كمظاهر ونتائج للمادة أيضاً.

المنهج المادي ذلك الذي يرى أن العلم والمعرفة الذي يصدر عن المادة، يقدم على كل علم آخر عند التنازع وسواء كان مصدر المعرفة هذه الوحي أم كان حكماً عقلياً خالصاً، وبالتالي فيتعامل هذا المنهج مع النصوص الشرعية بالرفض التام لها، وعدم الاعتراف بمصدرها، غير أن المتأثرين والمتبنين لهذا المنهج في العالم الإسلامي من الصعب عليهم أن يصرحوا بذلك أمام مجتمعاتهم المسلمة فظهرت نماذج تعمل على إلغاء دلالة النصوص واعتبارها غير موجودة من خلال الدعوة إلى حصول العلم من مصادر المادة أو الواقع أو باعتبار التاريخ مصدراً للمعرفة، أو بالتصريح بالاعتماد على روح النص، والابتعاد عن النصوص ذاتها. وهذه الآراء التي لا بد أن تستدعي إلغاء النبوة ذاتها، وعدم اعتبار ما يصدر عنها، لأنها تمثل مرحلة زمنية قديمة، واعتماد السنن الكونية والاجتماعية بديل عنها.

من أجل ذلك كله، ولأجل المفاهيم التي يحملها هذا المنهج ولأجل تداعياته على النص الشرعي كانت هذه الورقة المتواضعة عن (المنهج المادي) بشقيه الجدلي والذي اقتضى فيه ماركس أثر هيغل وبجانبه التاريخي الذي صاغه ماركس وإنجلز ومن بعدهما لينين.

هذا وقد جاهدت نفسي في تتبع مظان أفكار هذا المنهج والقراءة لرواده وناقديه في أمل أن أصوغ عنها هذه الورقة البحثية فأسأل الله أن يحقق ما أرنو إليه وأهدف.

أهمية البحث وأسباب اختياره

تتبع أهمية هذا البحث من حساسية موضوعه وارتباطه المباشر بجوهر الرؤية الإسلامية للكون والحياة والإنسان، إذ يتناول بالتحليل والنقد أحد المناهج الفلسفية الحديثة التي تسعى إلى تفسير الوجود والتاريخ والمجتمع تفسيراً مادياً محضاً، ينفي البعد الغيبي، ويجعل المادة وحدها أصل كل الظواهر. هذا التوجه، المتمثل في الفلسفة المادية الجدلية والتاريخية، لا يقتصر على كونه إطاراً فلسفياً أو أداة تحليل اجتماعي، بل يتجاوز ذلك ليصبح مدخلاً لإعادة صياغة المفاهيم العقيدية والإنسانية وفق منظور وضعي، يُقصي الوحي والروح، ويختزل الإنسان في بعده المادي.

وقد جاء اختيار هذا الموضوع استجابة لجملة من الدوافع، أهمها:

1. شدة حضور الفكر المادي الماركسي في الخطاب الفلسفي والاجتماعي الغربي، وامتداد تأثيره إلى بعض النخب الفكرية في العالم الإسلامي، مما يستدعي دراسته بعمق وكشف أبعاده.
2. خطورة التأثيرات الفكرية المترتبة على تبني المنهج المادي، خاصة في قضايا الدين والإنسان والتاريخ، لما يحمله من إنكار للغيب ورفض لمصادر المعرفة الشرعية.
3. الحاجة العلمية إلى تفكيك الأسس الفلسفية والمعرفية للمادية الجدلية والتاريخية، وبيان تناقضاتها المنطقية والعلمية، ومقارنتها بالتصور الإسلامي.
4. ندرة الدراسات النقدية العربية المتخصصة التي تجمع بين التحليل الفلسفي والنقد الشرعي لهذا المنهج، مما يجعل البحث إضافة نوعية للمكتبة الفكرية الإسلامية.

مشكلة البحث

تتمثل مشكلة البحث في الإجابة عن السؤال الرئيس: كيف تشكل المنهج المادي الجدلي والتاريخي في الفلسفة الغربية، وما هي أبعاده المعرفية والإنسانية، ومدى تعارضه مع الرؤية الإسلامية؟ وينبثق عن ذلك عدد من الإشكالات الفرعية، مثل:

1. ما الجذور الفكرية والفلسفية التي انبنى عليها المنهج المادي؟
2. ما أهم الأسس والمفاهيم التي يقوم عليها هذا المنهج؟
3. ما أوجه القصور والخلل الفلسفي والعلمي في هذا المنهج؟
4. كيف يتعامل المنهج المادي مع النصوص الدينية والبعد الغيبي؟

أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى:

1. تحليل الجذور الفلسفية للمنهج المادي الجدلي والتاريخي، وتتبع مسار تطوره.
2. إبراز أهم المفاهيم والمقولات الفكرية التي يقوم عليها هذا المنهج.
3. نقد الأبعاد المعرفية والإنسانية للمنهج المادي من منظور فلسفي وإسلامي منظور علمي وفلسفي.
4. توضيح التعارض الجوهرية بين التصور المادي والتصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان.
5. تقديم توصيات عملية لتعزيز الدراسات النقدية المقارنة بين الفكر المادي والفكر الإسلامي.

منهج البحث:

اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي النقدي؛ حيث تم توصيف المفاهيم والمقولات الأساسية للمنهج المادي كما وردت في المصادر الفلسفية الغربية، ثم تحليلها في ضوء سياقها التاريخي والفكري، وأخيراً نقدها من منظور فلسفي وإسلامي، مع الاستفادة من الدراسات السابقة في مجال نقد الفلسفات المادية.

الدراسات السابقة:

1. "الدين والفلسفة المادية الجدلية": إعداد: أحمد علي حيشي، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الملك عبد العزيز، 1976، بإشراف الشيخ محمد الغزالي. تناولت الدراسة الأسس النظرية للفلسفة المادية الجدلية كما صاغها ماركس وإنجلز، وناقشت موقفها من الدين باعتباره "انعكاساً مادياً" أو "أفيون الشعوب"، ثم عرضت الموقف الإسلامي الذي يربط الدين بالروح والغاية الأخلاقية العليا. ركزت الرسالة على كشف التناقضات الفلسفية في المادية الجدلية، مبيّنة قصورها عن تفسير الغيب والوجود الإنساني تفسيراً متكاملًا، وقدمت نقداً عقدياً يبرز عظمة الرؤية القرآنية في مواجهة التصورات المادية البحتة.
2. الفلسفة الماركسية ونقد الفكر المادي: "المؤلف: د. عبد الله العروي، بحث منشور في مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 85، 2013. تناول هذا البحث الأسس النظرية للفكر الماركسي، مع التركيز على المادية الجدلية والتاريخية، محللاً تطور هذه المفاهيم منذ هيغل وفورباخ وصولاً إلى ماركس ولينين، ومبيّناً التناقضات الداخلية في الرؤية المادية مقارنة بالرؤية الدينية.
3. "المادية الجدلية وأثرها على الفكر العربي المعاصر": إعداد: د. محمد السيد الغلابي، بحث منشور في مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة، المجلد 22، العدد 2، 2017. بحثت الدراسة في كيفية انتقال المفاهيم المادية الجدلية إلى الساحة الفكرية العربية، ورصدت آليات التأثير عبر الترجمة والحركات السياسية، مع تقديم نقد فلسفي لمبدأ أولوية المادة على الفكر.
4. "Marxist Dialectical Materialism: Philosophical Foundations and Criticism": المؤلف J. Smith، بحث منشور في Journal of Philosophy and Social Science، 2020. ناقش البحث الأسس الفلسفية للمادية الجدلية في الفكر الماركسي، محللاً القوانين الثلاثة للجدل، ومبيّناً كيف جرى توظيفها في التحليل الاجتماعي والسياسي، مع عرض أبرز الاعتراضات الفلسفية والعلمية عليها.

5. "المادية التاريخية ومنهجية التفسير الاجتماعي للتاريخ :إعداد: د. خالد الزعبي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، 2015. تناولت الرسالة المادية التاريخية كمنهج لتفسير الظواهر الاجتماعية والتاريخية، وناقشت مدى قدرتها على تفسير التغير الاجتماعي مقارنة بالمناهج الأخرى، مع نقد لافتراض الحتمية الاقتصادية.

6. "Critiques of Historical Materialism in Contemporary Thought": المؤلف R. Thompson، بحث منشور في Philosophy Today ، 2018. استعرض البحث الاتجاهات النقدية الحديثة للمادية التاريخية، محلاً مدى صلاحية مقولاتها في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة والنظريات الاجتماعية المعاصرة، مع التركيز على إخفاها في تفسير الظاهرة الإنسانية في بعدها الروحي والأخلاقي.

مع أن الدراسات السابقة تناولت المادية الجدلية والتاريخية، فإن معظمها ركز على جانب محدد، مثل التحليل الفلسفي للبحث، أو التأثير السياسي، أو دراسة مفكر واحد بعينه. أما دراستي فقد جمعت بين التأصيل التاريخي والفلسفي والتحليل النقدي لكلا الشقين (الجدلي والتاريخي) في المادية، مع ربط ذلك بالموقف الإسلامي، مما يمنحها شمولية وعمقاً أكبر ويسد فجوة لم تغطها البحوث السابقة.

خطة البحث

المقدمة :وتشمل أهمية البحث وأسباب اختياره، ومشكلته، وأهدافه، ومنهجه، وخطته.

المبحث الأول : مفهوم المنهج المادي ومكوناته الأساسية.

المبحث الثاني : النشأة والتطور والجذور الفلسفية للمنهج المادي.

المبحث الثالث : أعلام المنهج المادي.

المبحث الرابع :أبرز الأفكار والأسس الفلسفية للمنهج المادي.

المبحث الخامس : تقويم المنهج المادي ونقد أبعاده المعرفية والإنسانية (الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان نموذجاً).

الخاتمة :عرض النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: مفهوم المنهج المادي ومكوناته الأساسية.

أولاً: ملامح مفهوم المادة في المنهج المادي

- حجر الزاوية في الفلسفة المادية بكل ما لها من عمق وشمول = أن المادة هي أساس الوجود وبيعو الحقائق، فالمادة هي أول الموجودات وأقدمها لدى أصحاب هذا المنهج.⁴
- أن كل الموجودات التي تظهر بعد المادة هي نتيجة وثمرتها، كالروح والأفكار والاحساس ونحو ذلك، يقول لينين⁵: "إن المادة تثير الإحساس بالدماغ والأعصاب والشبكية...، فالمادة هي الشيء الأولي، والاحساس والفكر والشعور هي المنتجات الأرقى للمادة المنظمة بشكل معين"⁶ وكذلك يكرر ذلك المنطلق أن المادة "هي ما ينتج الاحساسات بالتأثير في أعضاء حواسنا، المادة والطبيعة والكائن والموجود الفيزيائي هي العنصر الأول، بينما العقل والإدراك والإحساسات والموجود النفسي هي العنصر الثاني".
- أن مفهوم المادة واسع جداً، وأنه من أوسع المفاهيم إذ هو يشمل جميع الأشياء المنبثقة في العالم، ومن أهم خواصها وأبرزها أنها موجودة وجوداً موضوعياً، أي مستقلاً ومنفصلاً عن ذات الإنسان وفكره.
- أن خاصية الوجود الموضوعي هذه لا تعطي للمادة عدداً محدداً من الخواص فهي في نظر الماركسية غير متناهية.

ثانياً: المادية الفلسفية في الفكر الغربي

يتشكل المنهج المادي الفلسفي عند ماركس وإنجلز ومن بعدهما من نظريتين تتفرع عن الفكرة المنهجية المادية وهما: (المادية الجدلية والمادية التاريخية).⁷

⁴ نقض أوهم المادية الجدلية ص38

⁵ الفيلسوف (لينين 1870 - 1934م) الذي دعى إلى الفكرة الماركسية وساهم بنشرها وتعزيز فكرتها. سيأتي الحديث عنه في ثانيا الورقة.

⁶ المادية والمذهب التجريبي النقدي للينين ص43 نقلاً عن نقض أوهم المادية الجدلية ص38

⁷ في هذا الجزء من الورقة نتطرق للمفهوم وفيما يلي سنتحدث أكثر عن تاريخ وكيفية تشكل الماديتين.

- المادية الجدلية:

اعتمدت النظرية للمادة الجدلية عند ماركس على النظرية الجدلية السابقة المنتسبة إلى هيغل،
والمادية الجدلية بالمعنى الصحيح "هي دراسة التناقض في جوهر الأشياء ذاتها"⁸

وقد سميت بالمادية الجدلية لأن أسلوبها في النظر إلى حوادث الطبيعة، أو طريقتها في البحث
والمعرفة هي طريقة جدلية هيكلية، ولأن تحليلها حوادث الطبيعة وتصورها لهذه الحوادث، أي نظريتها
هي مادية.

- الجدال بين ماركس وإنجلز وبين هيغل:

عندما يعرف ماركس وإنجلز طريقتي المادية الجدلية يرجعان عادة إلى هيغل، باعتباره
الفيلسوف الذي أبان الخطوط الأساسية للجدلية غير أن ذلك لا يعني أن جدلية ماركس وإنجلز هو عين
جدلية هيغل، لأن ماركس وإنجلز لم يقتبسوا من جدلية هيغل سوى "نواته العقلية" وطرحا قشرته يقول
ماركس: "أن طريقتي الديالكتيكية لا تختلف عن الطريقة الهيجلية من حيث الأساس فحسب، بل
هي ضدها تماماً، فحركة الفكر، هذا الفكر الذي يشخصه هيغل ويطلق عليه اسم الفكرة هي في
نظره، خالق الواقع وصانعه، فما الواقع إلا الشكل الحادشي للفكرة. أما في نظري فعلى العكس،
ليست حركة الفكر سوى انعكاس الحركة الواقعية منقولة إلى دماغ الإنسان ومستقرة فيه"⁹

يقول خالد بكداش¹⁰ -وهو يصوغ التسلسل الفكري الفلسفي ابتداءً من هيغل وصولاً لماركس
وإنجلز وتبلورها لدى اللينين مروراً بفورباخ- والتي أعزم أنها يصلح أن تكون مدخلاً لفهم جذور وتاريخية
المادية الفلسفية يقول: "في فجر القرن التاسع عشر استخلص هيغل من جموع العلوم والتاريخ، أعم قوانين
الطبيعة والفكر -فاعتبر لأول مرة في التاريخ- أن الكون بأسره، أي الطبيعة والتاريخ والفكر، هو

⁸ مدخل إلى المادية الجدلية للفيلسوف البريطاني موريس كورنفورث (1909 - 1980م) وهو كتاب يستحق القراءة لمن أراد التعرف
أكثر على النظرية وهو بأصله محاضرات ألقاها المؤلف في عام 1950م في لندن ثم قام بمراجعة مادته وتنقيحها أكثر من مرة، الكتاب
يوقع 180 صفحة من مطبوعات دار الفارابي - بيروت - لبنان ترجمه إلى العربية: محمد مستجير مصطفى. (الطبعة الخامسة
2015) ص86

⁹ رأس المال لكارل ماركس المجلد الأول ص29 الطبعة الفرنسية - مكتب المطبوعات باريس 1938م نقلاً عن المادية التاريخية
والمادية الجدلية لستالين ص20.

¹⁰ خالد بكداش (1912 - 1995م) سوري، من أبرز الشخصيات الشيوعية تقلد منصب الأمين العام للحزب الشيوعي السوري، وهو
من قدم لكتاب ستالين (المادية التاريخية والمادية الجدلية) ولا أعلم من قام بترجمة الكتاب إلى العربية.

تتاج تطور لا ينتهي وأنه حركة دائمة، وفي تغير وتحول أبديين، فكان واضح طريقة الفلسفة
الديالكتيكية¹¹.

ولكن هيغل كان مثالياً، فلم يعتبر الفكر نتاجاً للمادة وانعكاساً لحركتها في دماغ الإنسان،
بل اعتبر الفكرة المطلقة صانعة المادة وخالقتها. غير أن التطور الاجتماعي والعلمي كان يبين يوماً بعد
يوم عجز المثالية عن تفسير حوادث الطبيعة والمجتمع. ويعود الفضل الكبير في إنزال المثالية في الفلسفة
عن عرشها، إلى فورباخ الذي قال بجرأة: (أن الفكر يخرج من الكائن، لا الكائن من الفكر).
وكانت مادية فورباخ حلقة الانتقال من فلسفة هيغل إلى فلسفة ماركس.

إن ماركس وانجلز حولاً ديالكتيك هيغل بصورة أساسية وجعلاً منه أداة للبحث العلمي والعمل.
فإنهما أزالا عنه القشور المثالية ووضعاه على أساس مادي صحيح، وحولاً ما كان عند هيغل مجرد
تصور أو تفسير للعالم وللعقل، إلى قواعد للعمل.

وفي ذلك يقول ماركس: (إن الفلاسفة لم يقوموا حتى الآن إلا بتفسير العالم، أما الآن فالهم
تغييره)¹². كما أنهما اكتشفا القوانين العلمية لتطور المجتمع البشري. وعلى أساس هذه الفكرة
الأساسية أن تاريخ الطبيعة والحضارات والفكر إنما يؤلف تاريخاً واحداً تخضع مظاهره كلها لنفس
قوانين التطور.

وقد أعطى لينين هذه الفلسفة العلمية اسمها النهائي وهو (المادية الديالكتيكية) واستعرض
أحدث الاكتشافات العلمية في عصره، خصوصاً في ميدان الفيزياء والكيمياء وحلها ودرسها جميعها،
وعلى هذا الدرس وسع المادية الديالكتيكية وسار بها إلى الأمام، منفذاً بذلك رغبة إنجلز الذي كان
يقول: (أن كل اكتشاف علمي خطير يتناول مجموع العلوم سيجعل الماركسية تحقق رقياً جديداً)¹³

بكلمات أخرى يمكننا أن نتكلم على (مثالية جدلية) عند هيغل و(مادية جدلية) عند
ماركس، وبذلك يقوم أساس التشكل الديني والسياسي والاجتماعي بناءً على المستوى الاقتصادي
عند ماركس، وبهذا المعنى يكون للعامل الاقتصادي المادي أسبقية على العامل الروحي وغيره من
العوامل.

¹¹ الديالكتيكية: ترجمتها العربية "الجدلية"، وهي منهج فلسفي يقوم على التناقض وصراع الأضداد بوصفه أساس الحركة والتطور (انظر:
المسيري، 2002، ص. 15).

¹² كارل ماركس، الأيديولوجيا الألمانية، قضايا عن فوير باخ، القضية الحادية عشرة، في الكتابات المبكرة، ص ٣٤١،
¹³ المادية التاريخية والمادية الجدلية ص 10 - 11.

ماركس المستوى الديني المستويان السياسي والاجتماعي المستوى الاقتصادي

حاصل القول، وضع هيغل قوانين الجدل الثلاثة (قانون وحدة وصراع الأضداد، وتحول الكم إلى كيف، وقانون نفي النفي) باعتبارها قوانين الفكر، ووسع كل من ماركس وإنجلز مفهوم الجدل فلسفياً فأصبح يعني: "علم القوانين العامة لحركة وتطور الطبيعة والمجتمع الانساني والفكر" وهو ما يعني أنه يسري في جميع مكونات الوجود بطريقة واقعية ومادية، الأمر الذي يؤكد إنجلز في مؤلفه (جدل الطبيعة): "إن المقولات الجدلية غيبية الطابع عند هيغل الذي يعتبرها أولية، أما جدل العالم الواقعي عنده، فليس إلا ظلالها، غير أن الأمر في الحقيقة على النقيض من ذلك، ليس جدل الفعل سوى انعكاساً لأشكال حركة العالم الواقعي للطبيعة والتاريخ على السواء". بعبارة أخرى، يرى وإنجلز أن قوانين الجدل موجودة في الطبيعة وليس مفروضة عليها من الخارج، أي أنها من طبيعة الطبيعة وليست من مصدر الفكر، باختصار شديد إنها قوانين الطبيعة والتاريخ البشري وليست قوانين للفكر.

- المادية التاريخية:

أما المادية التاريخية فتوسع نطاق مبادئ المادية الجدلية حتى تشمل دراسة الحياة الاجتماعية، وتطبق هذه المبادئ على حوادث الحياة الاجتماعية، أي على درس المجتمع، وعلى درس تاريخ المجتمع.¹⁴

وعندما يعرف ماركس وإنجلز ماديتهما يرجعان عادة إلى فورباخ¹⁵ باعتباره الفيلسوف الذي أعاد إلى المادية حقوقها، غير أن ذلك لا يعني أن مادية ماركس وإنجلز هي عين مادية فورباخ. فإن ماركس وإنجلز لم يقتبساً من مادية فورباخ سوى نواتها المركزية، ثم وسعها وجعلها منها نظرية فلسفية علمية للمادية، وعليه فالتاريخ بكل ما يتضمنه من أفكار وعلوم وآداب واقتصاد وفنون ودين، ليس إلا من نتاج الحياة والفكر الذين ليس كل منهما شيئاً أكثر من نتاج المادة، فلا بد أن تكون

¹⁴ المادية التاريخية والمادية الجدلية ص 18.

¹⁵ حلقة الانتقال الفلسفي بين هيغل وماركس سيأتي الحديث عنه في ثنايا الورقة.

هذه الرحلة التاريخية الطويلة التي قطع الإنسان إلى اليوم ما قطع من أشواطها هي أيضاً من ثمرات المادة وآثارها.

وإذا كانت المادة هي الأصل والفكر والتاريخ البشري هما نتاجها وهي سابقة في الوجود عليهما، وبالتالي أصبح الأساس الاقتصادي هو أساس كل شيء متغير، وبناء على دراستهم للمجتمع فإن التفسير المادي للتاريخ عندهم هو التفسير العلمي الصحيح.¹⁶

ولأوضح التفسير المادي للأشياء المتغيرة في الحياة والتاريخ والمجتمع والكون، سأورد تمثيلاً وحيداً لموريس كورنفورث مع بطلان مضمونه إلا أن سبب ورود ذلك فلسفياً محضاً يقول كورنفورث¹⁷: "لندرس ظاهرة طبيعية مألوفة جداً - الرعد، ما الذي يسبب الرعد؟ ثمة طريقة مثالية للإجابة عن السؤال وهي أن الرعد يرجع إلى غضب الله، فعندما يغضب الله ينزل الرعد والبرق على البشرية. وتعارض الطريقة المادية لفهم الرعد هذه الطريقة، فسيحاول المادي شرح الرعد وفهمه باعتباره راجعاً فحسب إلى ما يسميه القوى الطبيعية. فمثلاً قال الماديون القدامى: إن الرعد لا يرجع إلى غضب الآلهة وإنما تسببه جسيمات مادية في السحب تصطدم ببعضها البعض، وليست القضية هي أن هذا التفسير بذاته خاطئ، فالقضية هي أنه كان محاولة مادية معارضة للتفسير المثالي، ونحن نعرف اليوم الكثير عن الرعد بفضل البحث العلمي للقوى الطبيعية التي تسببه، ولا تزال معرفتنا غير كاملة كثيراً، لكنها تكفي على أي حال لتوضح أن التفسير يجب أن يتبع خطوطاً مادية، بحيث يطرح تماماً التفسير المثالي.

ونحن نرى أنه بينما يحاول التفسير المثالي أن يرجع بالظاهرة إلى سبب روحي - هو غضب الله في مثالنا هذا- فإن التفسير المادي يرجعها إلى أسباب مادية...

¹⁶ موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ. لأحمد بن عبد بن الحسين العوايشة، رسالة علمية مقدمة لنيل درجة الماجستير في العقيدة في جامعة الملك عبد العزيز كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة. إشراف الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني (1399 - 1400هـ). ص 79

¹⁷ قد ينزعج البعض من سماع مثل هذه الأمثلة لمثل هذه النظريات ولقد أوردتها لأسباب أولها لتوضيح المراد وتحقيق الهدف البحثي في هذه الورقة بتقريب النظريات الفلسفية بطابع السهل الممتنع وكذلك ليتعود الخاضع غمار الفلسفات الوضعية الناقد لها المدافع عن الإسلام من سموها هذه الأمثلة والنتائج والمحصلات من هذه النظريات الفلسفية ليدرك عظم وزرها ولتقفي أثر وقعها.

ولنأخذ مثلاً ثانياً مأخوذاً هذه المرة من الحياة الاجتماعية، فمثلاً: لماذا يوجد أغنياء وفقراء؟ هذا سؤال يطرحه الكثيرون وخصوصاً من الفقراء. الإجابة المثالية الأكثر صراحة لهذه المسألة هو القول ببساطة لأن الله جعلهم كذلك، بإرادة الله أن يكون البعض أغنياء والبعض فقراء. ولكن تنتشر إجابات مثالية أخرى أقل صراحة. مثلاً: لأن بعض الناس مدبرون وبعيدو النظر، فهم يمتنون مواردهم ويثرون، بينما الآخرون مدبرون وأغنياء، فهم يظلون فقراء. وأولئك الذين ينحازون إلى هذا النوع من التفسير يقولون إن الأمر كله يرجع إلى (طبيعة الإنسان) الخالدة، فطبيعة الإنسان والمجتمع تولد بالضرورة تميزاً بين الغني والفقير.

فكما كان المثاليون في تفسيرهم للظواهر الطبيعية - مثل ظاهرة الرعد - يعزونها إلى قوى غيبية أو إرادة إلهية أو إلى العقل الكوني المقدس، فإنهم على النهج نفسه يبحثون في ظواهر الغنى والفقير عن أسباب روحية غير مادية؛ فإن لم تكن إرادة إلهية، فلتكن خصائص فطرية مزعومة تميز ذهن الإنسان، متجاهلين بذلك العوامل المادية والاجتماعية الحقيقية الكامنة وراء هذه الظواهر.

أما المادي فعلى العكس من ذلك يبحث عن السبب في الظروف المادية والاقتصادية للحياة الاجتماعية، فإذا كان المجتمع ينقسم إلى غني وفقير فذلك لأن إنتاج وسائل الحياة المادية منظم بطريقة تجعل البعض مالكا للأرض وغيرها من وسائل الإنتاج بينما يجب على الآخرين أن يعملوا من أجلهم. ومهما عملوا جادين ومهما دبوا وادخروا فسيظل غير المالكين فقراء بينما سيزداد المالكون غنى كثرمة لعمل هؤلاء.

ومن هنا يمكن أن يكون الفارق بين المفهوم المادي والمثالي في مسائل كهذه مهمة جداً. وليس الفارق هاماً من الناحية النظرية فحسب، بل من الناحية العملية كذلك.

فالمفهوم المادي عن الرعد مثلاً يساعدنا على الاحتياط منه. مثل تجهيز المباني بمانعات الصواعق، لكن إذا كان تفسيرنا للرعد مثالياً فكل ما نستطيعه هو أن نرقب وندعو، وإذا نحن تقبلنا تفسيراً مثالياً لوجود أغنياء وفقراء فكل ما نستطيع عمله هو أن نقبل، ولكننا إذا تسلحنا بالفهم المادي للمجتمع فسنبداً في البحث عن طريق لتغيير المجتمع¹⁸

¹⁸ مدخل إلى المادية ص32

ثالثاً: أغاليط في فهم المفهوم المادي¹⁹:

بسبب التصور السريع لمفهوم النظرية المادية نجم عنه بعض الادراكات الخاطئة من أبرزها ما يُفهم من أن أصحاب النظرية ماديين أن الربح المادي/المالي يعد لديهم أحد أهم القيم الأخلاقية لهم ومن مثّلهم العليا الذي يُعليه عليهم منهجهم الماركسي.

فإذا كان ماركس (مادياً) بمعنى اعتقاده بأن الاقتصاد هو الحاسم في الحياة الدينية والروحية، فإنه لم يكن مادياً بمعنى يفيد اعتبار ما يُدعى بالقيم المادية، المال والممتلكات مثلاً أعلى. على العكس من ذلك، لقد اعتبر ماركس ذلك الموقف (التملكي) انحطاطاً (تاريخ الفكر).

فماركس لم يكن مادياً بالمعنى المفيد أن الربح المادي مثلاً أعلى (المادية الأخلاقية) كما لم يكن مادياً بالمعنى الذي يفيد أن كل موجود مؤلف من جزئيات مادية، ويتبع قوانين ميكانيكية (المادية الميكانيكية الذرية)²⁰

يقول موريس في سياق ذكره للفوارق بين المادية الماركسية وبين المثالية: "كما أنهما ليسا -كما يستخدم البعض التعبير- موقفين أخلاقيين متعارضين- يمثل أحدهما سمو الفكر ويمثل الآخر الانحطاط والبحث عن المنفعة الشخصية. فإذا استخدمنا التعبير بهذا المعنى فلن نصل إلى فهم التعارض بين المفهوم المثالي والمفهوم المادي"²¹

وهذه الطريقة في التعبير كما يقول إنجلز ليست إلا "تنازلاً لا يغتفر أمام التحيز السوقي التقليدي ضد كلمة المادية الناشئ عن التشهير الذي استمر طويلاً من جانب الكهنة؛ فالسوقي يفهم من كلمة المادية الجشع والإدمان وشهوة العين وشهوة اللحم، والكبر والطمع والبخل، والسعي وراء الربح والغش في البورصة -وباختصار كل الرذائل القذرة التي ينفس

فيها سراً، ويفهم من كلمة المثالية الإيمان بالفضيلة وبحب الخير للجميع وبشكل عام "بعالم أفضل"، يتفاخر به أمام الآخرين"²²

¹⁹ أطرح ذلك اجتاهداً من عندي انصافاً للنظرية وليس في سياق الاطراء وبيان إيجابياتها وتركيزاً لحاملي لوائها.

²⁰ تاريخ الفكر الغربي ص 679.

²¹ مدخل إلى المادية ص 30.

²² مدخل إلى المادية ص 30.

المبحث الثاني: النشأة والتطور والجذور الفلسفية للمنهج المادي.

أول من رسم ملامح المنهج المادي هو الفيلسوف الألماني (كارل ماركس 1818-1887م) وسميت عند البعض بالماركسية نسبة له الذي أسسها مع صديقه وصاحبه (فردريك انجلز 1820 - 1895م) ثم جاء من بعدهم (لينين 1870 - 1934م) الذي دعى إليها وساهم بنشرها وتعزيز فكرتها.

لقد تأثر ماركس بالفلسفة الألمانية المادية التي كانت سائدة في عصره، فأخذ عن هيغل (الجدل) -كما سبق أن بيناه- وأخرجه من سياقه المثالي إلى حتمية الواقع المادي، ويمكن القول بأن الظروف التي أعانت ماركس على وضع فلسفته كانت ظروفًا سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية، سادت في عصره وعاشها في بداية حياته تتلخص في التالي:

- التناقضات التي جاء بها تطور النظام الرأسمالي في أوروبا خلال القرن التاسع عشر بين طبقة الملاك الرأسماليين وبين طبقة العمال الكادحين. وبالمناسبة لم يكن ماركس وإنجلز وحدهما الذين وصفا سلبيات الرأسمالية، وضاقا وحدهما بنتائج المذهب الحر، ولكن وجد غيرهما وإن كان أقل منهما إغراقاً في التحليل المادي الاشتراكي وترسيخ مقولاته، وقد أورد المؤرخ (تريفيليان) في كتابه "تاريخ إنجلترا الاجتماعي"²³ صوراً لحالة بعض العمال في إنجلترا في ذلك الوقت لا تقل بشاعة عن الصور التي حرص ماركس على إثباتها في كتابه "رأس المال"²⁴ وراح مفكرو الرأسمالية بعد ذلك يواجهون النقد بشكل أكثر عنفاً من الناحية النظرية.

- التطور الذي قطعه علم الطبيعة خلال القرن التاسع عشر، فقد كف هذا العلم عن دراسة الأشياء والوقائع منفصلة عن بعضها البعض، وتحول إلى علم نظري يسعى إلى تفسير هذه الوقائع، وإيضاح الصلة بينها على أساس جدلي عميق.

لقد ساعدت هذه العوامل لتبلور الفكرة المادية الجدلية والتاريخية لدى ماركس ورواد نظريته، وكما سبق أن ذكرت في مقدمة هذه الورقة أن الأجواء في السوق الفكري بعد التحرر من ربة القهر الكنسي أسهمت بلا شك بفضائها وبعد تراكمها بتشكيل النظرية المادية الماركسية.

²³ تاريخ إنجلترا الاجتماعي لتريفيليان (مترجم) الدار المصرية ببنايف والترجمة ص135 نقلاً عن الفكر المادي المعاصر في البلاد العربية ص20

²⁴ رأس المال لكارل ماركس ترجمة د.راشد البراوي ج1، ص29. القاهرة عام 1957م نقلاً عن المرجع السابق.

كان هذا المناخ والذي يكاد أن يكون في إهماله للجانب الإنساني عند العمال مادي النزعة هو من أصلح البيئات زماناً ومكاناً لظهور الفكر المادي، والدعوات الاشتراكية في أوروبا، وقد ظلت الاتجاهات والأفكار الفلسفية ذات النزعة المادية في نطاق الرؤية والاجتهاد حتى مطلع القرن العشرين حين أمكن بلورة الفكر المادي الماركسي في شكل نظرية فلسفية قامت على أنقاض سلبيات مذهب الاقتصاد الحر.²⁵

المبحث الثالث: أعلام المنهج المادي:

- كارل ماركس (1818 – 1883م)

كان يهودياً ألمانياً متطرفاً، وهو من أوائل الدعاة للثورة الشيوعية، فطرده الحكومة البروسية، فهاجر إلى فرنسا، وهناك أتاحت له الفرصة للاتصال بزميله في وضع فلسفته (فردريك إنجلز) ولم يلبث أن طرده فرنسا فذهب إلى لندن، وعندما دعت الجمعية الشيوعية في بروكسل إلى وضع أسس الفلسفة الشيوعية فكان بعد ذلك أول بيان لفلسفته (1848م).²⁶

- فوريباخ (1804 – 1872م)

هو فيلسوف ألماني كان من أنجب التلاميذ لهيغل ثم أصبح من أبرز معارضيه، وهو يعد ثاني الفلاسفة المتقدمين في الفلسفة الوضعية وهو ثمرة من ثمرات الفكر المادي الذي ساد في القرن التاسع عشر الذي اشتد فيه الجدل ضد الدين النصراني كما سبق معنا.

ويرى كثيرون أن فوريباخ بفلسفته يعتبر حلقة الانتقال من فلسفة هيغل إلى فلسفة ماركس.

- فريدريك إنجلز (1820 – 1895م)

فيلسوف ورجل صناعة ألماني إذا ذكر ماركس بنظريته المادية لابد أن يُذكر إنجلز معه، التقى إنجلز بماركس في أوائل الأربعينيات (1840م) وكان كلاهما ألمانيا. عاشا في إنجلترا حيث تعاون إنجلز مع ماركس في كتابات مهمة عديدة مثل الأيديولوجيا الألمانية والبيان الشيوعي. وبعد وفاة ماركس (1883م) نشر إنجلز المجلدين الثاني والثالث من كتاب رأس المال لذا يُعد إنجلز في عداد

²⁵ الفكر المادي المعاصر في البلاد العربية ص22

²⁶ المرجع السابق ص27

مفكري الأدب الماركسي الكلاسيكي. غير أن إنجلز قام أيضاً بكتابة أعمال مهمة عديدة فضلاً عن أبحاث في الفلسفة الطبيعية والأسرة.²⁷

المبحث الرابع: أبرز الأفكار والأسس الفلسفية للمنهج المادي.

- وجود الأضداد في وحدة ذاتية وصراع هذه الأضداد :

من المعلوم أن أحكام الضدين لا يمكن أن يجتمعا تحت ظل من وحدة الموضوع والمحمول والزمان والمكان وقيود الصفة، فالسواد القاتم والبياض الناصع لا يمكن أن يلتقيا في ذات واحدة، في لحظة واحدة في حيز مكاني واحد؛ وإذا تقرر ذلك نعلم أن الكون مسرح ولا ريب لشتى صنوف الأضداد والمتناقضات، ولكنها منبسطة فيه على أبعاد زمنية ومكانية وموضوعية شتى كما نقرر بأن هذه الأضداد والمتناقضات قد يؤثر البعض منها في بعض،

فنحن نرى كيف يتأثر الساكن بالمتحرك والظلام بالضياء، والبرودة بالحرارة، والسالب بالموجب، والانفجار بالضغط، والجهل بالعلم وهلم جرى.

وإذا أريد بصراع الأضداد هذا المعنى المائل أمامنا، فهو أمر مسلم به وهي حقيقة معروفة، ولكن أئمة الفلسفة الماركسية يصرون على أن أصغر جزئيات المادة في أضيق وحدات الزمان ليس إلا ملتقى للأضداد المتراكمة المتصارعة وذلك هو معنى المراء بكلمة (وحدة الأضداد) ويقول لينين "الديالكتيك هو دراسة التناقض في جوهر الأشياء عينه"²⁸

وتطيل الماركسية البحث في إثبات أن كل شيء في العالم المادي يحتوي على تناقضات داخلية، وتتخذ من المكتشفات الحديثة في عالم الطبيعة والفيزياء خير اهد لها على ذلك، إن اكتشاف الفيزياء مثلاً لبنية الذرة المعقدة المتناقضة إن دل على شيء فإنما يدل على هذا القانون الذي تعتبره الماركسية العمود الفقري لنظريتها الشاملة في الديالكتيك.²⁹

²⁷ تاريخ الفكر الغربي ص 696

²⁸ نقض أوهام المادية الجدلية ص 37.

²⁹ المرجع السابق ص 36

- المادة هي أساس الوجود وينبوع الحقائق:

فالمادة هي أول الموجودات وأقدمها في نظر الماركسيين وإذا فإن كل الموجودات التي ظهرت فيما بعد، نتيجة وثمره للمادة، كالروح والفكر والاحساس ونحو ذلك.

والمادة إذا موجودة خارج وعي الإنسان مستقلة في الوجود عن إدراكاته، وأنه مهما قدم العلم اكتشافات جديدة عن المادة وذراتها وجسيماتها، وما يعتلج في داخلها، فلن يكون ذلك في يوم ما حصراً للمادة، أو إعلاناً عن عد وجودها. ذلك لأن الجسيمات نفسها بكل ما قد تتبثق عنه هي الأخرى مادة. لأنها تملك خاصيته الكبرى وهي وجودها الموضوعي المستقل عن الذات.³⁰

- ملازمة المادة للحركة:

قد تبدو المادة أمام أبصارنا في مجموعها الكلي ساكنة كالحجر الذي لا يتحرك من موضعه مثلاً وقد يكون هذا صحيحاً لأول وهلة، ولكننا لو أمعنا النظر في هذا الحجر الساكن لوجدنا أن في أعماقه حركة لا تهدأ، فذراته التي يتألف منها تتنقل فيه بلا انقطاع، كما أن جزئيات هذه الذرات لا تتوقف عن الحركة الدائبة.

وتقرر الماركسية أنه لم تكن أبداً حالة كانت فيها المادة بلا حركة "إن الحركة هي نمط وجود المادة في أي زمان أو مكان لم توجد أبداً مادة بلا حركة، ولا يمكن أن توجد"³¹

- الوعي وظيفة لمادة عالية التنظيم هي الدماغ:

الوعي هو الأفكار والإحساسات والتصورات والإرادة وهي جميعها من أعراض الإنسان فإذا لم يوجد الانسان فلا وعي، وهذا يعني أنه لا وجود للوعي ولا يمكن أن يوجد بدون المادة.

ويجب أن نعلم -على حد ما تقرره المادية - أن الوعي إنما هو من نتاج مادة عالية التنظيم إنه نتاج نشاط الدماغ، فالوعي هو وظيفة الدماغ، من أجل هذا كان التفكير من خصائص الإنسان النابعة من نشوء الشكل الأعلى للمادة، خلال عملية التطور التدريجي الذي مر بأحقاب طويلة.

يقول إنجلز: "أدرك أن العالم الحسي الذي ندركه بواسطة إحساسنا هو الحقيقة الوحيدة، وأن شعورنا وتفكيرنا مهما ظهرا أرفع من المحسوس، يظلان من انتاج المادة، من انتاج عضو في الجسم هو

³⁰ المرجع السابق ص 39.

³¹ المرجع السابق ص 40.

الدماغ، فليست المادة نتاج العقل، بل العقل نفسه ليس إلا النتاج الأعلى للمادة، هذه هي بالطبع المادية النقية³²

ويقول لينين: "المادة هي ما ينتج الإحساس بفعله في أعضاء حواسنا، المادة هي الواقع الموضوعي المعطى لنا في الإحساسات وهكذا دواليك"³³.

- اللغة هي روح الفكر:

تري المادية الماركسية أن الدماغ لا يؤدي وظيفته العليا إلا إذا عاش صاحبه في مجتمع إنساني، وكانت مصطلحات اللغة سائدة فيه، فبالاصطلاحات اللغوية التي تطرق سمع الإنسان معبرة عن معانيها ومضموناتها، تتجرد تلك المعاني في الذهن وتحيي فيه مفهوماتها، فيستطيع أن يبني عليها الأحكام ويستخرج منها النتائج.

- المعرفة والحقيقة الموضوعية:

يرى بعض الفلاسفة المثاليون أنه لا يمكن معرفة العالم، ومما يستدلون به على ذلك أن جوهر الشيء منفصل عن ظاهراته - كما تم توضيحه في أوراق عمل سابقة - فلا يمكن التوصل بواسطة دراسة الظواهر إلى معرفة الجوهر أي إلى معرفة الشيء بذاته وحقيقته.

لكن الماديين يردون على هذا التصور رداً عنيفاً ويصرّون على أن بين ظواهر الشيء وجوهره اتصالاً وثيقاً، ذلك لأن الجوهر تعبير عن الصلة الداخلية للعالم الموضوعي، ولأنه أساس تنوع الظواهر أما الظواهر فهي مظهر الجوهر، أي الشكل الخارجي لتجليه.

والحقيقة أنه لا تتردد الماركسية في تقرير وجود الحقيقة الموضوعية، لأنها ليست وليدة الفكر، وإنما هي انعكاس إليه من واقع موضوعي، وما الحقيقة إلا تطابق المضمون الفكري للواقع الخارجي. وهذا معنى قول الماديين: إن الحقيقة الموضوعية ليست رهناً بالإنسان، ولكنها مع ذلك لا تسمى حقيقة إلا عندما تكون في ذهن الإنسان.

وهذه أبرز الأسس الفلسفية التي يقوم عليها المنهج المادي الجدلي وعلى النقيض من الرؤية المادية التي تجعل المادة أصل الوجود، يقدم التصور الإسلامي رؤية متكاملة للكون والحياة والإنسان، تنطلق

³² المرجع السابق ص 41

³³ المرجع السابق الصفحة نفسها.

من الإيمان بالله الخالق المدبر، وتقرّر أن الكون مخلوق حادث قائم بإرادة الله تعالى، وأن الإنسان مكرم مستخلف في الأرض، ليس مجرد نتاج مادي بل روح وعقل وجسد. كما أن الغيب - من ملائكة ووحى ويوم آخر - يمثل جزءاً أصيلاً في بناء المعرفة الإسلامية، وهو ما يمنح الحياة غايتها ومعناها. ومن هنا، يظهر التعارض الجوهرى بين المادية والإسلام، إذ تُسقط الأولى الغيب والروح والغاية، بينما يؤكد الثاني أن الحياة الدنيا مزرعة للأخرة، وأن القيم والأخلاق جزء لا يتجزأ من حقيقة الوجود.

المبحث الخامس: تقويم المنهج المادي ونقد أبعاده المعرفية والإنسانية

(الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان نموذجاً)

المطلب الأول: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان - نموذج المسيري

بحث الدكتور: عبد الوهاب المسيري في كتابه "الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان" في البنية التحتية للفلسفات الحديثة من الماركسية وغيرها وقال واصفاً الدافع والأهمية: "وأعتقد أنه حان الوقت لفتح باب الاجتهاد بخصوص هذه الفلسفة، نظراً لأهميتها وهيمنتها على بعض أعضاء النخب الثقافية والفكرية"³⁴

وقد خصص الدكتور الفصل الأول من كتابه لتعريف الفلسفة المادية وسر جاذبيتها ومواطن قصورها، كما يعرض الفصل نفسه، في بدايته للظاهرة الإنسانية وسماتها الأساسية. حيث يقول: "والواقع أن الامتزاج الكامل بالطبيعة / المادة هو شكل من أشكال فقدان الوعي والهوية والحدود وهو ما نسميه النزعة الرحمية (وانتصار الموضوع على الذات)، وهذا هو الإغراء الأساسي الذي يجابه كل البشر ويهدد إنسانيتهم، وهو جوهر كل الهرطقات المعادية للإله والإنسان، ابتداءً بالهرطقة الغنوصية وانتهاءً إلى الهرطقات الحديثة (مثل النزعة الطبيعية)"³⁵

ويقوم الفصل الثاني بتوضيح الفروق الأساسية بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة الإنسانية وفشل الفلسفة المادية في تفسير ظاهرة الإنسان، بل ويذهب هذا الفصل إلى أن هذه الفلسفة تشكل هجوماً على الطبيعة البشرية.

³⁴ الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان للدكتور عبد الوهاب المسيري، دار الفكر - دمشق - سوريا (الطبعة الرابعة 1431هـ) ص2

³⁵ المرجع السابق ص21

ويتناول الفصل الثالث مفهوم العقل فيبين أن العقل في حد ذاته مفهوم عائم غائم وأن المهم هو النموذج الكامن وراء العقل. وانطلاقاً من هذا التصور تحاول هذه الدراسة حصر أهم سمات العقل المادي، كما تحاول توضيح الفرق بين العقل الأداتي والعقل النقدي.

ويتناول الفصل الرابع بعض التجليات التاريخية للفلسفة المادية، وأما الخامس فيتناول الترشيح بمعنى إعادة صياغة المجتمع والإنسان في الإطار المادي، وكيف أن هذا يؤدي في نهاية الأمر إلى تدمير الحياة ووهم التحكم الكامل فيها.

ويختم الكتاب بعد ذلك في حديثه عن المادية والإبادة يبين كيف أن الرؤية المادية هي رؤية إبادية في جوهرها، ويطبّق الفصل هذا على ظاهرة الإبادة النازية لليهود، وغيرهم من الأقليات. فيقول في هذا الفصل: "حينما يُرد الإنسان إلى الطبيعة/ المادة، فإنه يفقد ما يميزه بوصفه إنساناً ويصبح مادة استعمالية ليس قيمة خاصة، ولذا فالرؤية المادية تحوي داخلها نزعة إبادية"³⁶. ويمكن فيما يلي مستخلص للنموذج (المسيري) النقدي للنظرية:

1. " تدعي الفلسفة المادية أنها ليست أيديولوجية وإنما علم طبيعي، وهذا يفترض أن الفلسفة المادية قد قامت بحصر كل المتغيرات المادية والموضوعية ورصدها في علاقاتها المتشعبة وأثبتت صحة مقولاتها. وهو أمر مستحيل علمياً"³⁷
2. "العلم التجريبي محدود ولا يستطيع أن يتعامل مع كل أنواع الخبرات وجوانبها، والطريقة التجريبية ذاتها تقريبية، وهي نتائج تنطبق في المتوسط، أي على المجموعات الكبيرة وليس على كل مفردة بذاتها"³⁸
3. "ادعت الفلسفة المادية في البداية أن المادي هو ما تدركه الحواس، وأن ما لا تدركه غير مادي وبالتالي غير موجود. ولكن الذرات وجزئياتها لا تُدرك بالحواس وبعضها لا كتلة له، وحركة الذرة لا تتبع نمطاً محدداً، والثقوب السوداء تحطم قوانين الزمان والمكان. ومن ثم أعيد تعريف المادي بأنه كل شيء يوجد وجوداً موضوعياً، أي أنه الشيء الذي لا يعتمد في وجوده على عقلنا أو وعينا به (وبهذا المعنى، فإن الفلسفة المادية لا يمكنها

³⁶ المرجع السابق ص196.

³⁷ المرجع السابق ص21

³⁸ المرجع السابق ص22.

- أن تستبعد العناصر غير المادية إن تجلت موضوعياً في واقعنا) وهو ما يعود بنا إلى نقطة البداية.³⁹
4. مسألة أزلية المادة أصبحت مسألة مشكوكاً فيها علمياً فالمادة تتحول إلى طاقة والطاقة تتحول إلى مادة. وقابليتها للتحويل تعني أن بقاءها في هيئتها المعينة كان معتمداً على ظروف خارجة عن ذاتها، فلما زالت تلك الظروف زالت تلك الهيئة، إذن فهي ليست معتمدة في وجودها على نفسها ومن ثم تستحيل أن تكون آلية. فكل ما يتحلل ويتحول فليس بأزلي غير حادث، بل هو بالضرورة حادث⁴⁰.
5. "لكن التحدي الأكبر للفلسفة المادية هو ظاهرة الإنسان بكل ما فيها من أسرار وتركيبية، والتي أخفق العلم الطبيعي تماماً في إدخالها في قفص السببية الصلبة المطلقة الحديدي"⁴¹

المطلب الثاني: أوجه القصور والخلل الفلسفي والعلمي في المنهج المادي

إن المنهج المادي - سواء في صورته الجدلية أو التاريخية - لا يمكن أن يُعدّ مجرد إطار معرفي محدود، بل هو رؤية شاملة للوجود والحياة. ومع ذلك، فقد انطوى على جملة من القصور والخلل الفلسفي والعلمي الذي جعله عرضة للنقد من داخل الفلسفة الغربية ذاتها، فضلاً عن النقد الذي وجّه إليه من منظور الفكر الإسلامي. ويمكن إجمال أبرز هذه المثالب فيما يلي:

أولاً: القصور في تفسير الظاهرة الإنسانية: من أعظم ما يكشف عجز المنهج المادي، عجزه عن تفسير الظاهرة الإنسانية في أبعادها الكاملة: فالإنسان ليس مجرد كائن بيولوجي خاضع لحتميات المادة، بل هو كائن مكلف ذو إرادة حرة وضمير وقيم وغاية. وهذه الجوانب لا يمكن ردّها إلى مجرد تفاعلات مادية أو اقتصادية. إن اختزال الإنسان في بعده المادي يفرغه من إنسانيته ويحوّله إلى "شيء" بين الأشياء، وهو ما نبّه إليه عدد من المفكرين ومنهم عبد الوهاب المسيري⁴² الذي اعتبر الفلسفة المادية تفكيكاً للإنسان وتهديداً لهويته ووعيه.

ثانياً: إشكالية أزلية المادة: أكد الماركسيون أن المادة أزلية لا بداية لها، وأنها الأصل الأول للوجود. غير أن المعطيات العلمية الحديثة - مثل نظرية الانفجار العظيم، والتحوليات الفيزيائية بين المادة والطاقة - أثبتت أن الكون حادث، وأن للمادة بداية، وأنها قابلة للتحويل والانقضاء. وهذا ينقض ادعاء المادية

³⁹ المرجع السابق ص 27.

⁴⁰ المرجع السابق ص 28.

⁴¹ المرجع السابق ص 29.

⁴² الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، المسيري، ص 75

ويكشف أن المادة ليست قائمة بذاتها ولا مكتفية بوجودها⁴³. وبذلك تسقط دعوى الأزلية التي بُنيت عليها الرؤية المادية.

ثالثاً: **المبالغة في الحتمية الاقتصادية والاختزال التفسيري**: ترى المادية التاريخية أن العامل الاقتصادي هو المحدد الأول والأخير لسير التاريخ وتطور المجتمعات، متجاهلة سائر العوامل الدينية والقيمية والأخلاقية والفكرية. وهذا اختزال مغلّ بالواقع، يتعارض مع شواهد التاريخ التي تُظهر أن الدين والعقيدة قد شكّلا أحياناً القوة الحاسمة في تحريك الأمم والشعوب. وقد أشار أحمد العوايشة⁴⁴ إلى أن التفسير الماركسي للتاريخ يعجز عن استيعاب البعد الغيبي والديني، ويجعل الإنسان مجرد تابع لظروفه الاقتصادية.

رابعاً: **التناقض الداخلي بين الحتمية والتغير**: يرفع المنهج المادي شعار "القوانين الحتمية" التي تحكم الطبيعة والتاريخ والمجتمع، ثم يؤكد في الوقت ذاته أن كل شيء في تغير دائم وحركة لا تنقطع. وهذا التناقض الداخلي يضع الفلسفة المادية في مأزق؛ إذ كيف يمكن الجمع بين الحتمية المطلقة وبين التغير الدائم الذي لا يترك مجالاً لثبات القوانين؟⁴⁵.

خامساً: **نقض علمي داخلي لتعريف المادة**: في بداياتها، حصرت المادية "الوجود" فيما تدركه الحواس، ثم اضطرت منظرها - بعد تطورات الفيزياء والعلوم الطبيعية - إلى إعادة تعريف المادة مراراً. فالجسيمات الذرية مثل الإلكترونات والفوتونات لا تُدرك بالحواس المباشرة، وبعضها لا كتلة له، والثقوب السوداء تكسر قوانين المكان والزمان، مما يثبت أن الواقع أوسع من أن يُختزل في التجربة الحسية. وقد أشار طومسون⁴⁶ إلى أن هذا الاضطراب في تعريف المادة ينسف الأساس الذي بُنيت عليه الفلسفة المادية.

سادساً: **غياب البعد الغيبي وإنكار الوحي**: من أخطر ما في المنهج المادي إلغاؤه للغيب وإنكاره للوحي، إذ يتعامل مع النصوص الشرعية بوصفها معطيات غير علمية، ويستبدل بها قوانين الطبيعة والتاريخ. وبذلك يصطدم اصطداماً مباشراً مع الرؤية الإسلامية التي تجعل الوحي مصدراً أساساً للمعرفة، وتقرّر

⁴³ مدخل إلى المادية، كورنفورث ص 42

⁴⁴ موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ. العوايشة ص 134

⁴⁵ المادية الجدلية وأثرها على الفكر العربي المعاصر، الغلابي، 213.

⁴⁶ Critiques of Historical Materialism in Contemporary Thought p56

بوجود عالم غيبي لا تدركه الحواس. وقد فصل البوطي⁴⁷ في نقض أوهام المادية الجدلية، مبيناً أنها تقود إلى إلغاء النبوة وإنكار الوحي، وهو ما لا يقبله عقل ولا فطرة.

في المقابل، يقرر الإسلام أن الوحي مصدر أساس للمعرفة، وأن العقل وحده لا يستقل بإدراك جميع الحقائق. فالقرآن الكريم يبين أن الغيب ركن من أركان الإيمان: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: 3]، كما يقرر أن الإنسان ليس مجرد كائن اقتصادي بل خليفة في الأرض، مكلف بالعبادة وعمارة الكون وفق منهج الله. وهذا ما يجعل الموقف المادي متعارضاً تماماً مع الرؤية الإسلامية التي تجمع بين الغيب والشهادة، بين المادة والروح، وتمنح للوجود معنى وغاية.

المطلب الثالث: تعامل المنهج المادي مع النصوص الدينية والبعد الغيبي:

يُعدّ الموقف من الغيب والنصوص الدينية أحد أبرز مواطن التعارض بين الفلسفة المادية والرؤية الإسلامية. فالمنهج المادي، في جذوره الماركسية، يقوم على إنكار أي وجود خارج حدود الحس والتجربة المادية، ويرى أن الظواهر الغيبية ليست إلا انعكاساً للأوضاع المادية أو إسقاطات نفسية واجتماعية. ولهذا السبب اعتبر ماركس الدين مجرد "بنية فوقية" ناتجة عن البناء الاقتصادي، ووسيلة لتبرير الأوضاع الاجتماعية السائدة⁴⁸

وبناءً على ذلك، يتعامل الماديون مع النصوص الشرعية بالرفض أو التأويل المادي، حيث لا يُعترف بالوحي كمصدر مستقل للمعرفة، بل يُعاد تفسيره باعتباره خطاباً يعكس البنية الاقتصادية أو حاجة المجتمع في مرحلة تاريخية معينة⁴⁹. بل إن بعض المتأثرين بالمنهج المادي في العالم الإسلامي سعوا إلى إلغاء دلالات النصوص القطعية، والاكتفاء بما سموه "روح النص" أو "السنن الاجتماعية"، وهو في حقيقته نفي لمصادقية النبوة ومرحلة الوحي⁵⁰.

أما الغيب - من ملائكة وجن وجنة ونار - فقد عده الفكر المادي أوهاماً لا وجود لها في الواقع، لعدم خضوعها للتجربة الحسية. وهذا الموقف يعكس الاختزال المعرفي الذي يقوم عليه المنهج المادي، إذ

⁴⁷ نقض أوهام المادية الجدلية ص 89

⁴⁸ مساهمة في نقد فلسفة الحق عند هيجل: المقدمة ص 142.

⁴⁹ موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ. العوايشة ص 156

⁵⁰ نقض أوهام المادية الجدلية ص 112

يساوي بين "المعرفة" و"التجربة الحسية"، متجاهلاً أن أفق المعرفة الإنسانية أوسع بكثير، وأن النصوص الدينية تكشف عن حقائق لا تدركها الحواس وإنما يصدقها العقل والفطرة.

وهذا التعاطي مع النصوص والغيب لا يقف عند حدود الماركسية وحدها، بل يشمل الاتجاهات المادية الحديثة، التي تنظر إلى الدين بوصفه ظاهرة اجتماعية قابلة للتفكيك والتحليل المادي، لا باعتباره وحياً إلهياً متجاوزاً. ومن هنا فإن موقف المنهج المادي من الغيب والنصوص ليس مجرد اختلاف في التفسير، بل هو تناقض جوهري مع التصور الإسلامي الذي يجعل الغيب ركناً من أركان الإيمان، والوحي مصدراً أساساً للمعرفة واليقين.

الخاتمة

في نهاية هذا البحث أشكر الله عز وجل أن يسر لي القيام بذلك وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يكون الاطلاع على القدر المطلوب من جميع الجوانب فيه البحثية والعلمية والفنية، وفيما يلي أورد أهم النتائج والتوصيات، فمن أهم النتائج التي ظهرت لي أثناء البحث:

1. أن المادية ليست مجرد نظرية فلسفية، بل رؤية شاملة للكون والحياة والإنسان.
2. الفكر المادي يتعارض جذرياً مع الرؤية الإسلامية للكون والحياة، إذ ينفي وجود الغيب والروح والوحي، ويعتبر أن كل ما هو فوق الحس والتجربة مجرد وهم أو إسقاط اجتماعي.
3. الفلسفة الماركسية أعادت صياغة الجدل الهيجلي بصورة مادية، فأصبحت المادة لا الفكرة هي التي تُنتج التاريخ والمجتمع، وهذا يعني أن الإنسان تابع للواقع المادي وليس العكس.
4. المنهج المادي يعاني من تناقضات علمية وفلسفية، منها: ادعاء أولية المادة رغم التحولات الفيزيائية للطاقة والمادة، والعجز عن تفسير الظواهر الإنسانية كالإبداع، والإرادة، والمقاصد، والضمير.

ومن أهم التوصيات:

1. ضرورة إعداد أبحاث أكاديمية ومؤلفات نقدية متخصصة تدرس الجذور الفلسفية للمادية وتكشف تعارضها مع التصورات الإسلامية في الإنسان والكون والحياة.
2. دراسة المنهج المادي ضمن مقررات العقيدة الإسلامية، ليكون جزءاً من التكوين العلمي الواعي لطلاب العلوم الشرعية والفكرية، ووسيلة لتحصينهم من الانبهار بالأطروحات الغربية ذات الطابع التفكيكي.
3. تشجيع البحوث المقارنة بين الفلسفة المادية والفكر الإسلامي في قضايا مثل: الإنسان، التاريخ، المعرفة، الغيب، والكرامة الإنسانية؛ لإبراز تمايز المنظومة الإسلامية وتميزها.

فهرس المراجع

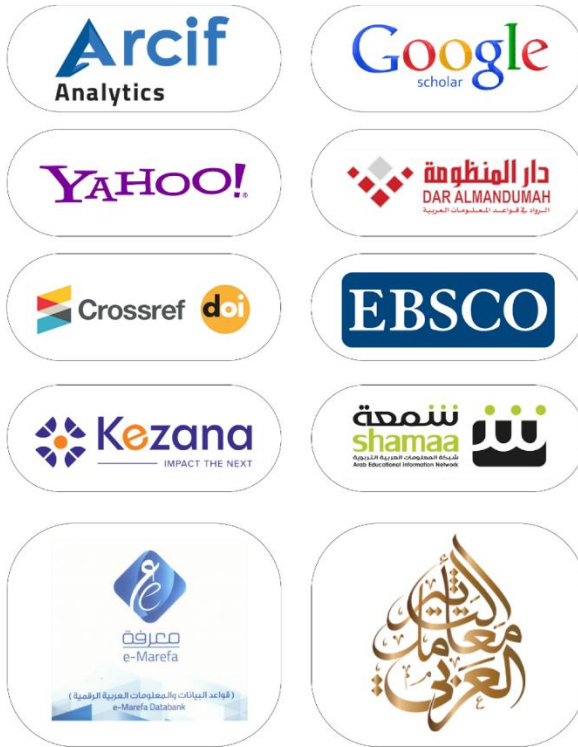
1. أسس دراسة المستقبل في التربية الإسلامية محمد بن أحمد النعيري، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التربية الإسلامية، كلية التربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1426هـ.
2. السنن الاجتماعية في القرآن الكريم وعملها في الأمم والأفراد محمد أمحزون، الرياض: دار طيبة، الطبعة الأولى، 1432هـ.
3. الفكر المادي المعاصر في البلاد العربية وموقف الفكر الإسلامي منه سعود بن سلمان بن محمد آل سعود، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.
4. الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان عبد الوهاب المسيري، دمشق: دار الفكر، الطبعة الرابعة، 1431هـ.
5. المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية جوزيف ستالين، دمشق: دار دمشق، المكتبة الاشتراكية.
6. مدخل إلى المادية موريس كورنفورث، ترجمة: محمد مستجير مصطفى، بيروت: دار الفارابي، الطبعة الخامسة، 2015م.
7. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت: دار الكتاب العربي.
8. مجلة العلوم الشرعية جامعة القصيم، المجلد الثاني، العدد الثاني، رجب 1430هـ.
9. معجم البلدان ياقوت الحموي، بيروت: دار صادر، الطبعة الثانية، 1995م.
10. من معالم المنهجية الإسلامية للدراسات المستقبلية هاني بن عبد الله الجبير، الرياض: مركز البيان للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى، 1429هـ.
11. الموافقات في أصول الشريعة أبو إسحاق الشاطبي، تحقيق: عبد الله دراز، الرياض: مكتبة الرياض الحديثة.
12. موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ أحمد بن عبد بن الحسين العوايشة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة، جامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة، 1399هـ/1400هـ.
13. نقض أوهام المادية الجدلية محمد سعيد رمضان البوطي، دمشق: دار الفكر، الطبعة الثالثة، 1405هـ.
14. رأس المال كارل ماركس، ترجمة: راشد البراوي، القاهرة: مطابع الهيئة العامة للكتاب، 1957م.
15. تاريخ إنجلترا الاجتماعي تريفيليان، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والنشر.
16. تاريخ الفكر الغربي: من اليونان إلى القرن العشرين غنار سكيريك ونلز غيلجي، ترجمة: حيدر حاج إسماعيل، مراجعة: نجوى نصر، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، 2012م.

17. المسيري، عبد الوهاب. (2010). *الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان*. دمشق: دار الفكر.
18. كورنفورث، موريس. (2015). *مدخل إلى المادية*. ترجمة: محمد مستجير مصطفى. بيروت: دار الفارابي.
19. العوايشة، أحمد بن عبد بن الحسين. (1980). *موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ*. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك عبد العزيز.
20. الغلابي، محمد السيد. (2017). "المادية الجدلية وأثرها على الفكر العربي المعاصر". *مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة*، 22. (2)
21. Thompson, R. (2018). Critiques of Historical Materialism in Contemporary Thought. *Philosophy Today*, 62(3), 45–60.
22. البوطي، محمد سعيد رمضان. (1985). *نقض أوهام المادية الجدلية*. دمشق: دار الفكر.
23. ماركس، ك. (1844). *مساهمة في نقد فلسفة الحق عند هيجل: المقدمة*. مجلة الحوليات الألمانية- الفرنسية. استرجع من <https://www.marxists.org/archive/marx/works/1843/critique-hpr/intro.htm>



مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية والاجتماعية
مجلة دولية شهرية علمية محكمة
الترقيم الدولي الإلكتروني : ISSN : 2410- 521X
الترقيم الدولي الورقي : ISSN : 2410- 1818
البريد الإلكتروني : journal@andalusuniv.net

المجلة مفهرسة في المواقع الآتية :



2024	2023	2022	2021	2020	العام
0.3068	0.3759	0.1954	0.2692	0.0366	معامل أرسيف
1.55	1.25	1.73	1.60	1.60	معامل التأثير العربي